أحلام فى قصر (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

كان فلانٌ بن الأمير فلان يتنبَّلُ فى نفسه بأنه مشتقٌ ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تيَّاهاً صَلِفاً يشمَخُ على قومه بأنه ابن أمير ، ويختال فى الناس بأن له جَدًّا من الأمراء ، ويرى من تَجَبُّرِه أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلاً فى الملك

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلدوا وفى دمهم شعاعُ السيف وبريق التاج ، ونخوةُ الظفر ، وعزُّ القهر والغلبة ؛ ولكن زمنه ضربَ الحصارَ عليه ، وأفضت الدولةُ إلى غيره فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض ، ومن تشييد الامارات إلى تشييد العمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وغيَّر دهرُه عليك ويجمع حتى أصبحت دفاتر حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة

وبعض أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولاد أمراء فيكونون من التكبر والغرور كأنما رضوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط ....

* * *

وانتقل الأمير البخيل إلى رحمة الله ، وترك المال وأخذ معه الأوقام وحدها يحاسَب عنها ، فورثه ابنه وأمَرَّ يدَه فى ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدار قد كتبت عليه هذه الكلمة : غير قابل للاجسان . فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة : مُجمع للشيطان

أما الشيطان فكان له عمل خاص فى خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيده ، غير أنه لا يلبسه ثياباً بل أفكاراً وآراءً وأخيلةً . وكان يجهد أن يُدخل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدة مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهى أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفى غيرها فلا تبرح تسأل الشيطان بين الحين والحين : ألا توجد لذة جديدة غير معروفة ؟ ألا يستطيع ابليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة ؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبحها لصبحها ؟

كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يخترع له كأساً تسع نهراً من الخمر ، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن . وكان يريد من الشيطان أن يعينه فى اللذة على الاستغراق الروحانى ويغمره بمثل التجليات القدسية التى تنتهى اليها النفس من حِدَّة الطرب وحدَّة الشوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثم كان معه فى جهد عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهمَّ أن يرفع يدَه عنه ويدعه يدخل إلى المسجد فيصلى مع بعض الأمراء الصالحين

وهؤلاء الفُسَّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ، فهمُّهم دائماً الألذُّ والأجمل والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتُهم من اللذات الجديدة ما يسدُّها ضاقت بهم نفوسهم مظهر الذى يحاول أن ينتحر . وذلك هو الملل الذى يُبتلون به .. والفاسق الذى حين يمل من لذاته يصبح شأنه مع نفسه كالذى يكون فى نفق تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجواً يطير فيهما بالطيارة ...

* * *

قالوا : واعترض ابنَ الأمير ذات يوم شحاذٌ مريض قد أسنَّ وعجز يتحامل بعضه على بعض ، فسأله أن يحسن إليه وذكر عَوَزه واختلاله وجعل يَبُثُّه من دموعه وألفاظه . وكان إبليس فى تلك الساعة قد صرف خواطر الشاب إلى إحدى الغانيات المتنعات عليه وقد ابتاع لها حلية ثمينة اشتطَّ بائعها فى الثمن حتى بلغ به عشرة آلاف دينار ، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قدَرٌ من قادر ... وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة فى الشخص المضىء فكان إهانةً لخياله السامى ... ووجد فى نفسه غضاضةً من رؤية وجهه واشمأز فى عروقه دمُ الامارة وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءَه عليه ، فاذا هو يرى صاحب الوجه القذر كأنما يتهكم به يقول له : أنت أمير يبحث الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا الشيطان الذى فيه . وليس فيك من الامارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرىِّ الخرب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة آلاف دينار عند مومس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير .

(١) كتبنا مقالة (أحلام فى الشارع) وهى فى السنة الثانية من الرسالة

أنت أمير ، فهل تُثبت الحياة أنك أمير أو هذا معنى فى كلمة من اللغة ؟ إن كانت الحياة فأين أعمالك ، وإن كانت اللغة فهذه لفظة بائدة تدل فى عصور الانحطاط على قسط حاملها من الاستبداد والطغيان والجَبروت ، كأن الاستبداد بالشعب غنيمة يتناهبها عظماؤه ، فقسمٌ منها فى الحاكم وقسم فى شبه الحاكم يُترجم عنه فى اللغة بلقب أمير

ألا قل للناس أيها الأمير : إن لقبى هذا إنما هو تعبير الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جَرَم أُهين الشحاذ وطرد ومضى يدعو بما يدعو

ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خَيالتُه [1] من دنيا ضميره وضمير الشحاذ : فرأى فيما يرى النائم أن ملكا من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت ذلك المسكين تخشى أن تنالك منه جرائيم تمرض بها ، وما علمت أن فى كل سائل فقير جرائيم أخرى تمرض بها النعمة ؛ فان أكرمتَه بقيتْ فيه وإن أهنته نَفَضها عليك . لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير واستردّ العاريةَ صاحبها وأكلت الحوادثُ مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تهيأ لك إلا بجُهد وعمل ومشقة ؛ فاذهب فاكدح لعيشك فى هذه الدنيا فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميراً

قالوا : وينظر ابن الأمير فاذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا الامارة كانت وهماً فرضه على الناس قانون العادة ، وإذا التعاظم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكْراً من المكْر لاثبات هذا الظاهر والتعزُّز به . وينظر ابن الأمير فاذا هو بعد ذلك صعلوكٌ أبتر مُعْدم رثُّ الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مفتاظاً : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابن الأمير ؟

قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك إن الأقدار لا تدلّل أحداً لا ملكا ولا ابن ملك ولا سوقياً ولا ابن سوق ، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس فى التراب عظمٌ يقول لعظم آخر : أيها الأمير

* * *

قالوا : وفكر الشاب المسكين فى صواحبه من النساء وعندهن شبابه وإسرافُه ، ونفقاته الواسعة فقال فى نفسه : اذهب لاحداهن ؛ وأخذ سمته إليها فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبذاذته وفقره حتى أمرت به فجرَّ بيديه ودُفع فى قفاه . ولكن دم الامارة نزا فى وجهه غضباً وتحركت فيه الوراثة الحربية فصاح وأجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا وماج بعضهم فى بعض . فبينما هو فى شأنه حانت منه التفاتة فأبصر غلاماً قد دخل فى غُمار الناس فدسَّ يده فى جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى

قالوا : وجرى فى وهم ابن الأمير أن يلحق بالغلام فيكْبسَه كبسةَ الشرطى وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه ، فتسلل من الزحام وتبع الصبى حتى أدركه ، ثم كَبسَه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز فاذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب وبعض خرَزات مما يتبرك العامة بحمله ومفتاح صغير . . .

فامتلأ غيظاً وفار دمُ الامارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه . وألم الصبى بما فى نفسه وحَدَسَ على أنه رجل أفاقٌ متبطل لا نفاذَ له فى صناعة يرتزق منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها . وقال : إن لنا مدرسة فاذا دخلتَ القسم الاعدادىّ منها تعلمت كيف تحمل الكُتَل [1] فتذهب كأنك تجمع فيه الخرَق البالية من الدُّور حتى إذا سنَحَتْ لك غفلة انسللت إلى دار منها ، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع ، ولا تزال فى هذا الباب من الصنعة حتى تحكمه ، ومتى حذقتَه ومهرت فيه انتقلت إلى القسم الثانوى . . .

فصاح ابن الأمير : أغرب عنى ، عليك وعليك ، أخزاك الله ! ولعن الله الاعدادى والثانوى معاً

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينما هو يمشى وقد توزَّعته الهموم أنشأ يفكر فيما كان يراه من المكدِّين وتلك العلل التى ينتحلونها للكُدية كالذى يتعامى والذى يتعارج والذى يحدث فى جسمه الآفة ؛ ولكن دم الامارة اشمأز فى عروقه

(١) الخيالة : ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص

وتحركت فيه الوراثة الحربية ؛ وبَصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرَّض لمعروفه وأفضى إليه بهمّه وشكا ما نزل به ثم قال : وإني قد أمَّلتك وظني بك أن تصطفيني لمنادمتك أو تلحقني بخدمتك ، وما أريد إلا الكفافَ من العيش ، فان لم تبلغ بي فالقليل الذي يعيش به المُقِلّ . وصمَّد فيه الشاب وصوَّب ثم قال له : أتحسن أن تلطُف في حاجتي ؟ قال : سأبلغ في حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة في هذا ؟ أكنت قوّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . . ؟

فانتفض غضباً وهمَّ أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمَّل أن يجد عملاً في بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعتْ به ظِنَّةُ التلصُّص ، وكادوا يسلمونه الى الشرطي فمضى هارباً وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جميعاً

قالوا : ومر في طريقه الى مصرعه بامرأة تبيع الفُجل والبصل والكرات وهي بادنة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها سمحة إغراء ، فذكر غزله وفتنته واستفواءه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لا تُعجزه ولا تفوته وهو في هذا الباب خرَّاجٌ ولاَّجٌ منذ نشأ ، غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمة أظلم لها الجو في عينيه ، ثم هرَّت في وجهه هريراً منكراً واستَعْدَت عليه السابلة فأطافوا به وأخذه الصفع بما قدم وما حدث ، ومازالوا يتعاورونه حتى وقع مغشياً عليه

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فضُرب وحُبس وابتلي بالجنون وأرسل الى المارستان وساح في مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والسُّوقة بما يرى وما لا يرى ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فاذا هو قد استيقظ من نومه

* * *

ويا ليت من يدري بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته التي امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدري ! فان الكتاب الذي نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عند ما انقطع الصفع .....

(لحظا) مصطفى صادق الرافعي

فوز نسوي مدبر

ملكات ووزيرات

بين الماضي والحاضر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وأن تحكم الشعوب ؛ وهي ما زالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب في عصرنا

ويقدم الينا التاريخ منذ العصور الغابرة نبتاً حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشاً خطيرة ، وألقيت اليهن مصاير أمم وشعوب عظيمة ، وقمن بتدبير الملك وقيادة الجيوش ؛ ففي مصر الفرعونية ، وفي مملكة سبأ ، وفي تدمر ، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيمة ؛ وفي مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هي كليوباترا تحاول رد الغزو الروماني عن مصر ، وتفتدي الهزيمة بالحياة ؛ ثم نرى في عصر الاسلام ملكة مصرية هي شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع عن مصر إزاء الخطر الصليبي ؛ ونرى في الغرب ، وفي العصر الحديث ، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصاير أعظم الأمم الأوربية مثل ايزابيلا ملكة قشتالة ، ومارى تيودور واليصابات ملكتا انكلترا ، وكاترين الكبرى امبراطورة روسيا ، وماريا تريزا امبراطورة النمسا

وفي أيامنا تتبوأ عرش هولندة أميرة عظيمة هي الملكة ولهلمينا ؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التي وصلت منذ العصور الغابرة إلى تبوء العروش وقيادة الدول ما زالت تناضل في عصرنا للحصول على أبسط الحقوق العامة التي يتمتع بها الرجل ، فاذا ظفرت ببعض هذه الحقوق في بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيما لقضيتها

وقد وقع أخيرا في فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيما للحركة النسوية ؛ ففي الوزارة الفرنسية الجديدة التي يرأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية ، مسيو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مركز الوزارة ، وهن مدام سيسيل برونشفيج إحدى زعيمات الحركة النسوية الفرنسية ، ومدام ايرين كورى العالمة الكيميائية